﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [التوبة: 39]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

"لَمَّا رغَّبَهم في الآية الأولى في الجهادِ بناءً على التَّرغيبِ في ثواب الآخرةِ؛ رغَّبهم في هذه الآية في الجهاد بناءً على أنواعٍ أُخَرَ من الأمور المقوِّية للدَّواعي"(1)، ويرى البقاعيُّ الانتقالَ من الوعدِ والتَّرغيب إلى الوعيدِ والتَّرهيب(2).

ترغيبُ النُّفوس في دواعي الجهاد، والتّلويح عند التّخلف، بالاستبدال وسوء المآل

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ﴾: من (بدل): الباءُ والدَّالُ واللَّام أصلٌ واحدٌ، وهو قيامُ الشَّيءِ مقامَ الشَّيءِ الذَّاهب، يقال: هذا بدلُ الشَّيءِ وبديلُهُ، ويقولون: بَدَّلْتُ الشَّيءَ؛ إذا غيَّرتُهُ، وإن لم تأتِ له ببدلٍ، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15](3) "الإبدالُ والتَّبديلُ والتَّبدُّل والاستبدالُ: جعلُ شيءٍ مكانَ آخرَ، وهو أعمُّ مِنَ العِوَض، فإنَّ العِوضَ هو أن يَصيرَ لك الثاني بإعطاءِ الأوَّل، والتَّبديل: قد يقال للتَّغييرِ مطلقًا، وإن لم يأتِ ببدَلِه"(4)، والمرادُ هنا: إهلاكُهم والإتيانُ بقومٍ غيرِهم.

2) ﴿تَضُرُّوهُ﴾: من (ضرَّ): الضَّادُ والرَّاءُ ثلاثةُ أصولٍ؛ الأوَّلُ: خلافُ النَّفع، والثَّاني: اجتماعُ الشَّيءِ، والثالثُ: القوَّةُ... فالآيةُ من الأوَّلِ، الضَّرُّ ضدُّ النَّفعِ، ويقال: ضَرَّهُ يضرُّهُ ضَرًّا، ثمَّ يُحْمَلُ على هذا كلُّ ما جانسَهُ أو قاربَهُ، وأمَّا الأصلُ الثَّاني: فضَرَّةُ الضَّرْع: لحمَتُه، وضَرّةُ الإبهام:

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 14/63.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/319.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(4) الرّاغب، المفردات: (بدل).

اللَّحمُ المجتمع تحتها، وأمَّا الثالثُ؛ فالضَّرير: قوَّةُ النَّفس، ويقالُ: فلانٌ ذو ضريرٍ على الشَّيءِ، إذا كان ذا صبرٍ عليهِ ومقاساةٍ[1]، والضُّرُّ: سوءُ الحالِ، إمَّا في نفسِه، وإمَّا في يديه، وإمَّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّةِ مالٍ وجاهٍ، يقال: ضرَّهُ يضرُّه: جلبَ إليه ضُرًّا، وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ ينبِّههم على قلَّةِ ما نالهم من جهتهم، ويؤمِّنُهم من ضررٍ يلحقُهم"[2]، والمعنى المرادُ هنا: أنَّ اللَّهَ لا يضرُّه شيءٌ، ولا أيُّ نوعٍ من أنواعِ الضَّررِ، ولارسولَهُ حينما يعذِّبُكم، ويهلِكُكم، ويأتي بآخرين.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

هذا إنذارٌ عامٌّ خالدٌ يشمَلُ العصورَ كلَّها منَ اللهِ لكلِّ الذين يتركونَ الجهادَ، ولاينفِرون في سبيل اللهِ؛ فقد أنذرَ في هذه الآيةِ بالعذاب والسُّخط والهلاكِ، وبإتيانه بقومٍ آخرين ينفِرون إذا استُنْفِروا، ويطيعون اللهَ ورسوله، وأنَّه لا ضررَ على اللهِ ورسوله[3] شيئًا بتولِّيكم عن الجهاد؛ فهو الغنيُّ عنكم وأنتم الفقراء إليه، فهو - جلَّ وعزَّ - على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

التَّهديدُ لمَن يتركون الجهاد، لأنَّه ضمانٌ للحفاظ على الدّين، وحماية الأمّة

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ سُنَّةَ اللهِ مَضَتْ بأنه لا بقاءَ للأمم التي تتثاقلُ عن الدفاع عن نفسها، وحفظِ حقيقتِها وسيادتِها، ولا تتمُّ فائدةُ القوة الدفاعية والهجومية إلا بطاعة الإمام، فكيف إذا كان الإمام والقائدُ هو النبيُّ الموعود من ربه بالنصر[4]؟

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الآيةِ ممَّا قبلَها ودلالتُه:

هذا تهديدٌ ووعيدٌ لتاركِ النَّفير[5] "هذا وعيدٌ وتهديدٌ عَقِبَ الملامِ

تعقيبُ اللَّومِ بالتَّهديدِ، أكبرُ زَجْرٍ عنِ العودِ للمَنهيِّ عنهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضر).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضر).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3307/6.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 595/10.
(5) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/93.

السَّابق؛ لأنَّ اللَّومَ وقعَ على تثاقُلٍ حصلَ، ولمّا كان التَّثاقلُ مُفضيًا إلى التَّخلُّف عنِ القتالِ؛ صرَّح بالوعيدِ والتَّهديدِ إن يعودوا لمثلِ ذلك التَّثاقل، فهو متعلِّقٌ بالمستقبلِ، كما هو مقتضى أداةِ الشَّرط، فالجملةُ مستأنفةٌ لغرض الإنكارِ بعدَ اللَّوم"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملةِ الشَّرط:

قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾، وفيه اصطفاءُ أسلوبِ التَّعليقِ في التَّهديد بيانٌ لهم أنَّ العذابَ الذي سيقعُ بهم سيكونونَ هم سببُه؛ لأنَّهم أخلُّوا بالشَّرط، فتسبَّبوا في إيقاعِ العذابِ بأنفسِهم، كما أنَّ في استخدامِ أسلوب الشَّرط تخفيفًا لوطأةِ التَّهديد لما في التَّعليق من عدمِ المعاجَلَةِ.

العـذابُ سببُهُ ممَّن وقعَ بهِ لا مِن غيرِهِ

سرُّ التَّعبيرِ بفعلِ الشَّرطِ ﴿تَنفِرُواْ﴾:

اصطفاءُ النَّظمِ الكريم فعلَ الشَّرطِ ﴿تَنفِرُواْ﴾ ينادي على آيةِ اللَّوم؛ ليتناسبَ اللَّومُ مع التَّهديد، وليكونَ ضدَّ التَّثاقلِ موطنِ اللَّومِ السَّابق، وفيه إلماعٌ إلى أنَّه لا يُزيلُ اللَّومَ ترْكُ الفعلِ موطنِ اللَّومِ فحسبُ، ولكن بالعملِ بضدِّه، وهو ما يحقِّقُ المطلبَ الشَّرعيَّ.

لا يُزيلُ اللَّومَ إلَّا فِعلُ ضدِّ ما أدَّى إليه

وجهُ التَّعبيرِ بالمضارعِ، في طرفي جملةِ الشَّرطِ:

في قولِه: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بالمضارعِ في طرفي جملة الشَّرطِ من الفعلِ والجواب؛ دلالةً على تجدُّدِ عذابِ اللَّه في الدنيا بإنزال المصائب بكم، وفي الآخرة بنار جهنم كلَّما تجدَّد عدمُ النَّفير للجهاد، وهو ألصقُ بمقام التَّهديد، ويؤيده حديث المصطفى - ﷺ المبيِّن لمعاني الذكر الحكيم - بقوله: «إذا تبايَعْتُم بالعِينةِ، وأخذتُم أذنابَ البقرِ ورضِيتُم بالزَّرعِ، وتركتُم الجهادَ، سلَّط اللَّهُ عليكم ذُلًّا لا ينزِعُه حتى ترجِعوا إلى

الجهادُ عظيمُ الشَّأنِ، ويناسبُه تجديدُ الوعيدِ، بتركه واستمرارُهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/199.

دينِكم»[1]، كما أنَّ أسلوب الشرط في الآية أَبَرُّ بسياق الحثِّ على الجهادِ في سبيلِ اللّهِ.

سرُّ تنكيرِ لفظ ﴿عَذَابًا﴾:

التَّنكيرُ المفيدُ التَّنويعَ والتَّهويلَ، ألصقُ بمقامِ التَّهديدِ

وقعَ لفظُ ﴿عَذَابًا﴾ مفعولًا مطلقًا؛ لبيان أنَّه عذابٌ حقيقيٌّ لا مجازيٌّ، و" ذكر العذابَ منكَّرًا مطلقًا، والتَّنكيرُ لتعظيم هذا العذابِ، وأنَّه شديدٌ يتطابقُ في شدَّتِه مع التَّثاقلِ عن الجهادِ عند وجودِ موجبِه، ودعوةِ الإمام الحقِّ إليه، وإطلاقُهُ يفيدُ تعدُّدَهُ، وكثرَتَهُ، فهو يشمَل الغزوَ من الأعداءِ، والذِّلَّةَ والمهانةَ والصَّغارَ، هذا في الدُّنيا، أمَّا يومُ القيامةِ، فنارُ الجحيم وغضبُ اللّهِ، وسخطُه، وبعدُه عنهُ"[2]، ففي التَّنكيرِ شمولٌ وعمومٌ لكلِّ أنواعِ العذابِ في الدُّنيا والآخرة.

نكتةُ وصفِ العذابِ بـ ﴿أَلِيمًا﴾:

المبالغةُ في التَّهديدِ، تدعم الإقلاعَ عنِ المنهيِّ عنهُ

وصْفُ المفعولِ المطلقِ المنَكَّرِ الذي أفادَ التَّهويلَ والتَّنويعَ بالألَم؛ زادَ في التَّهديد وأعلى منهُ، وهو فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، وهو مجازٌ عقليٌّ حيثُ أسندَ الإيلامَ إلى العذابِ، والمجازُ العقليُّ هاهنا يفيدُ قوَّةَ المعنى والمبالغةَ فيه، فالمعنى: العذابُ - المهدَّدُ به - كلُّه هولٌ، وأنواعُه كثيرةٌ، وكلُّها مؤلمٌ، وهذا مما يُلهِبُ على الإقلاعِ عنِ المَنْهيِّ عنهُ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستبدال بقوم آخرين:

تنويعُ أساليبِ التَّهديدِ محفِّزٌ ومُعينٌ، على الإقلاعِ عنِ المنهيِّ عنهُ

بقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، عُطِفَت هذه الجملةُ على ما قبلَها، إشعارًا بإنَّ الإهلاكَ لا يكونُ إلَّا بعدَ العذابِ بصنوفٍ وألوانٍ في الدُّنيا، ثمَّ يكونُ المحوُ والتَّبديلُ والتَّغيير، والسِّين والتَّاء للتَّأكيد، وللانتقاء الَّذي يُعبَّر عنه بالاختيارِ، والاصطفاءِ والاستخلاصِ

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (3462)، والبزّار في المسند، برقم: (5887)، وصحّحه الألبانيُّ بمجموع طرقه، السّلسلة الصحيحة: (11).

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3307/6.

والاصطناعِ، والبدلُ هو المأخوذُ عوضًا، كقولهِ: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: ويستبدلْ بِكم غيرَكم.

فضلُ معنى عطْفِ الجملتين بالواو:

نفاذُ التَّهديدِ إلى كلِّ فردٍ بعينهِ، كأنَّه موجَّهٌ إليه خاصَّة

التَّهديدُ بعدمِ الإهمال بالاستئصالِ بعدَ التَّعذيبِ قاضٍ باستيفائِهم آجالَهُم فيه، وهذا لا شكَّ مختلفٌ متفاوتٌ، وكلٌّ منهم بحسَبِهِ فيما قدَّرَ له، لينفِّذَ التَّهديد إلى كلِّ فردٍ فيهم، فإفادةُ الواو مطلقَ الجمعِ معَ المشاركةِ في الحكم قاضٍ باستيعابِهم على التَّنويعِ فيهم.

سرُّ عدمِ ذِكْرِهم في الاستبدال:

عدمُ الذِّكرِ أجمعُ للبَلاغِ، وأرعى لمقامِ الخطابِ، وأبلغُ في غرضِهِ

لم تقلِ الآيةُ: (ويستبدل"بكم" قومًا غيرَكم) فكانَ عدمُ ذكرِهم على هذا النَّحوِ مفيدًا معنى أنَّ اللّهَ لا ينظرُ إلى صورِهم وأجسامِهم، ولكنَّه ينظر إلى قلوبِهم وأعمالِهم وأحلامِهم، وهذهِ قد عُلِمَ فسادُها، فلم يَعُدْ لها أثرٌ يستحقُّ النَّظرَ، وفي هذا من التَّهديدِ أنَّهُ لم يبالِ بهم، وأنَّ التَّهديدَ هو بعذابٍ يعمُّهم، لا يغادرُ منهم أحدًا، وفيه الإيماءُ إلى مسؤوليَّة مخالطيهم – وليسوا منهم – عن وعظِهم وتذكيرِهم وزجرِهم.

علةُ اختصاصِ الآيةِ لفظَ ﴿قَوْمًا﴾:

القرآنُ كتابُ الحقِّ والعدلِ، يضعُ الشَّيءَ في موضعِهِ بدقَّةٍ وإحكامٍ

ذكرَ السِّياقُ الكريم ﴿قَوْمًا﴾ دون (أمَّةٍ) ودونَ الاكتفاءِ منه بوضعهِ ﴿غَيْرَكُمْ﴾، بل جمع بين اللفظتين؛ لأنَّه لو ذكرَ (أمَّةً)، أو أغفلَ ذكرَ القومِ؛ لدخلَ بالذِّكر، واحتملَ بالتَّركِ دخولُ النِّساء والأطفال والعجَزَةِ المعذورين؛ إذ ليس على النِّساء جهادٌ بالاستنفارِ في تلك الغزوةِ، ولا فيما يكفي فيه الرِّجال، لما أنَّ (قومًا)، تعني: (جماعةَ الرِّجالِ) كما تقرَّرَ، وكانوا هم المقصودين دونَ غيرِهم بالوعيد خصَّهم القرآنُ بهِ، فلم يُعَدِّهم إلى غيرِهم؛ حرصًا منه على إقامةِ العدلِ ووضع الجزاءِ موضعَهُ دونَ تزيُّدٍ ممَّا يفعلُه الفجَرَةُ المتغَطْرِسون، فهذا دليلٌ آخرُ أنَّه مِن عندِ اللّه.

وثَمَّ فائدةٌ أخرى لذلك تستحقُّ التَّأمُّلَ: أنَّ القرآنَ لا يبغي للبشريَّةِ حُوبًا، ولا من شأنه أن يسارعَ إلى العقوبةِ تشفِّيًا، بل إنَّه ليفرَحُ بالتَّوبةِ، ويسارعُ إلى المنيبِ يتلقَّفُه بتودُّدٍ، وفتْحِ مغاليقِ أبوابِ الأملِ في وجهِه، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النِّساء: 147].

ومن هذا القبيل يُنَوِّعُ الإشاراتِ والإلماحاتِ للعصاةِ المتقحِّمين ليراجِعوا أنفسَهم وما هُم عليه قبلَ فوات الأوان، ومن هذا القبيلِ ما ألمحَ لهم هنا بذكرِهِ ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، وهم رجالٌ، فالمعنى المستبطِن: أنَّهم سيخلِّفونكم على نسائِكم وأبنائِكم وأموالكم، فيكون أمضى في الإلهابِ وَأحَدَّ في التَّحفيز، وأجَدَّ في الانبعاث، وأدخلَ للكآبة والهمِّ على المُرتابَةِ قلوبُهم، فَهُم في ريبِهم يتردَّدون.

سرُّ تنكيرِ المفعولِ بِهِ:

وقعَ لفظُ ﴿قَوْمًا﴾ مفعولًا به منكَّرًا لإفادةِ التَّنويعِ، أي: نوعًا آخرَ، وتقديرُ المعنى: "يستبدلْ بكم قومًا غيرَكم خيرًا منكم وأطوعَ"[1]، كما أنَّ في التنكير إبهامًا لتذهبَ النَّفسُ، فيمن يكون خيرًا منهم كلَّ مذهبٍ، وقد وُصِف المفعولُ به بـ ﴿غَيْرَكُمْ﴾ "أي: ذوي بأسٍ ونجدةٍ مخالفين لكم في الخِلالِ الَّتي كانت سببًا للاستبدالِ لولايتِه ونصرِ دينِه"[2]، وفي ذلك تأكيدٌ أنَّهم لن يكونوا منهم، وهو المناسبُ لسياقِ تهديدِ مَن لم يَنْفُر إلى الجهادِ في سبيلِ اللّه.

التَّنويعُ والإبهامُ والوصفُ بالغيريَّةِ، تهديدٌ لمن لم يستجِبْ للنَّفير في سبيلِ الله

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾:

والواو يمكنُ أن تكونَ حاليَّةً "أي: يعذِّبْكم، ويستبدلْ قومًا غيرَكم في حالِ ألَّا تضرُّوا اللّهَ شيئًا بقعودِكم"[3]، والأعلى أنَّها للعطْفِ، و"(لا تضرُّوه) عطْفٌ على (يستبدِلْ) والواوُ فاعلٌ والهاء مفعولٌ بِهِ،

تأكيدُ القدرةِ على الضَّررِ وإيقاعِ الهلاكِ بهم

(1) الثعلبيّ، الكشف والبيان: 10/373.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/318.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/200.

وشيئًا: مفعولٌ مطلق، أي: شيئًا مِنَ الضَّرر"[1]، والمناسبةُ بين هذه الجملة وما عُطِفَت عليه أنَّه "لمّا هدَّدهم بما يضرُّهم؛ أخبرَهم أنَّهم لايضرُّون بفتورِهم غيرَ أنفسِهم"[2]، وقد عبَّرَ بـ (لا) دلالةً على نفي وقوعِ أيِّ ضررٍ حالًا أو استقبالًا، ولو عبَّرَ بـ (لن)؛ لأوهمَ أنَّ النَّفيَ متَّجِهٌ للمستقبل، وعبَّرَ بالفاعل ضميرًا تحاشيًا من ذكرهم صراحةً، بُغضًا لفعلِهم واستقباحًا لوصفِهم، فَهُم متثاقلونَ مخلَّدون إلى الأرض، راكنونَ إلى الدُّنيا.

ووجهٌ ثانٍ دالٌّ على إعجازِ القرآنِ، وأنَّه من عند الله: ذلك أنَّ عدمَ المستجيبين للنَّفْرِ العامِّ مع رسولِ اللهِ وصفوةِ المؤمنين به الخارجينَ معَهُ، قد أسرُّوا في أنفسِهم أنَّ قعودَهم عن الخروجِ لنصرتهِ وتكثيرِ سوادِ مَن مَعَهُ، أمكنُ للأعداءِ منهُ، أن يُوقِعَ الضَّررُ بهِ من جرَّاء ذلك، فأفصحَ القرآنُ بنفي ما أسرُّوهُ، وأبطنوهُ بقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗا﴾، وإذا أريدَ بالضَّمير النَّبيُّ - كما يرى الزَّجاجُ - بأنَّ الله أعلمَ أنَّه يستبدل لِنَصْرِ دينه ونبيِّه قوماً غيرَ مُثاقِلين عنِ النَّصْرِ إلى أعدائه؛ إذ أعلمهم اللهُ ﷻ أنهم إن تركوا نصره فلن يَضُرَّهُ ذلك شيئاً، كما لم يضرره إذ كان بمكةَ لا ناصرين له[3].

ويمكن أنه أُريدَ بهِ اللهُ، فقد نزَّل اللهُ منزلَهُ إرادةَ الضُّرِّ بنبيِّه أنَّه إرادةُ ذلكَ لَهُ، على حدِّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأحزاب: 57]، وقوله في الحديثِ الشَّريف: «قال الله ﷻ: يؤذيني ابنُ آدمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ: وأنا الدَّهْرُ، بيَدِي الأمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ والنَّهارَ»[4]. وكون النِّداء في صدرِ الآية السَّابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مع ما هم عليهِ من إخلاءٍ ذُمُّوا به، ونيَّاتٍ سيِّئةٍ هُدِّدوا عليها، هو بحَسَبِ ما أظهروهُ من ذلك، فعُوملوا بهِ، وخُوطِبوا على أساسِهِ.

تنوُّعُ مرجعِ الضَّميرِ ودلالتُه:

الضَّميرُ (الهاء) في ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ إمَّا أن يعودَ إلى الاسم الجليلِ، وهو أقربُ مذكورٍ في الآية السَّابقة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وإمَّا أن يعودَ إلى رسولِ الله ﷺ[5]، وهو حاضرٌ في

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/101.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/317.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/448.
(4) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (7491)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2246).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/210.

نفوس المخاطبين، وفي ذلك إشارةٌ إلى ظهورِ أمرهِ ﷺ ونصرتِه، ودحرِ أعدائِه، وعدمِ وصولِهم إلى ضررِه، والمعنى: متعانِقٌ، وفي ذلك تعظيمٌ لقدرِ رسولِ الله ﷺ فمَن أرادَ ضرَّهُ، كمَن أرادَ الضُّرَّ باللهِ، وهو محالٌ.

لا يستطيعُ أحدٌ إلحاقَ أدنى ضررٍ باللهِ ولا برسولِهِ

لطيفةُ تنكيرِ المفعولِ المطلقِ:

نكَّرَ المفعولَ المطلقَ ﴿شَيْـًٔا﴾، أي: شيئًا مِنَ الضَّررِ، وفي هذا التَّنكيرِ تعميمٌ وشمولٌ للإعلانِ عن طلاقةِ القدرةِ، فاللهُ هو الَّذي يملِكُ النَّفعَ والضُّرَّ ويوقعُهما وحده سبحانه، واحتجبَ عن خلقه بعزِّه، ووصلت إليهم نعمُهُ برحمتِه، وبلغت نقمتُه وسخطُه من أغضبَه.

عمومُ النَّفي مُعلِنٌ عن طلاقةِ القدرةِ

وجهُ التَّعبيرِ بالاسم الجليل (اللهِ)، مسندًا إليه:

عبَّر بالاسمِ الجليلِ (اللهِ) وهو أهيبُ أسماءِ اللهِ ﷻ إدخالًا للمهابةِ على النُّفوس، وسياقُ السِّباقِ واللَّحاقِ في التَّهديد والوعيد يناسبُهُ التَّعبيرَ بالاسمِ الجليلِ مسندًا إليه.

إدخالُ المهابةِ يلائمُ سياقَ الوعيدِ والتَّهديدِ

علةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ، على الخبر في السّياق:

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾على الخبرِ ﴿قَدِيرٌ﴾ لبيانِ إحاطةِ القدرةِ الإلهيَّةِ وشمولِهَا، مع ما في ﴿عَلَىٰ﴾ من معنى الاستعلاءِ والقهْرِ، وما في ﴿كُلِّ﴾ من العمومِ، ومافي لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ من العمومِ، وكلُّ ذلك مع التَّقديم ينصرُ الدِّلالةَ على شُمولِ القدرةِ الإلهيَّةِ وإحاطتِها، ويدخُل في ذلك دخولًا أوَّليًّا إيقاعُ المهدَّدِ بهِ على وجهِ الواردِ المخوفِ، ونصرِ نبيِّه، وإعلائِه، وحفظِه، وكلاءتِه على النَّحو المستنفرِ له المؤمَّلِ، وهو الملائمُ سياقَ التَّهديدِ والوعيدِ.

القدرةُ الإلهيَّةُ لايحدُّها حدٌّ، ولايُعجِزُها شيءٌ

سرُّ الختْمِ بإقرار لله بالقدرة:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والمناسبَةُ بين هذه الجملةِ وسابقتِها أنَّه "لمَّا أثبت بذلك قدرتَهُ على ضُرِّه لهم، وقصورَهم عن

الختمُ ببيانِ عمومِ القدرةِ، ملائمٌ سياقَ التّهديدِ والوعيدِ

الوصولِ إلى ضُرِّهِ؛ كان التَّقديرُ: لأنَّه قادرٌ على نَصْرِ دينهِ ونبيِّهِ بغيرِكم، فعطفَ عليه تعميمًا لقدرته؛ ترهيبًا من عظمِ سطوتِه"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يضرُّونَ، ويؤذونَ:

الضَّررُ أعمُّ من الأذى، والأذى يقعُ غالبًا بالقولِ، وعلى اليسيرِ مِن الأشياءِ

يؤذونَ: "الإيذاءُ يكونُ معنويًّا بالقولِ المؤلِمِ، ويكونُ حسِّيًّا بالضَّربِ ونحوِهِ، وكلُّ ما جاءَ في القرآنِ مِنَ الأذى والإيذاء، فمعناهُ الإيلامُ النَّفسيُّ (التَّكرُّهُ) أو البدنيُّ غيرُ المبرَّحِ، إلَّا ما ذكرَ اللهُ تعالى مرادًا به، فمعناه: المخالفةُ عن أمرِه، ومضادَّةُ حُكمِهِ، وإيذاءُ رسولِهِ صلى اللهُ عليه وآله وسلم، وكونُ الأذى البدنيِّ غيرَ مبرَّحٍ يناسب التَّهوينَ من شأنِ مكروهِهِ بالنِّسبة للضَّررِ، كما قد يُؤخَذُ مِن قولِهِ تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: 111] والأذى: هو المكروهُ اليَسيرُ، والشَّرُّ الخفيفُ"[2].

تضرُّوه: الضُّرُّ: ضدُّ النَّفعِ، وهو يعمُّ في الشَّأنين المادِّي والمعنويِّ: فضرَّه: ألحقَ بهِ أذًى، أو مكروهًا، وكذا ضرَّ به، وأضرَّهُ، وأضرَّ بهِ، وضارَّهُ سبَّبَ له نقصًا أو ضيقًا، ومن الضُّرِّ في القرآنِ: الحاجةُ إلى الطَّعامِ والميرةِ، والمرضِ وخوفِ الغرقِ والهلعِ والفزعِ ونحوه، وليس في الاستعمالاتِ القرآنيَّةِ للتركيبِ مايخرجُ عن معنى الضِّيقِ وما يلزمه، "وما جاء في القرآن، من قولِهِ سبحانه وبحمده: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: 176 - 177، محمّد: 32] وقولِهِ جلَّ وعزَّ الَّذي معنا في الآية: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾، وقولِهِ تعالى وتقدَّس: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗا﴾ [هود: 57] فالمعنى: لن تبلغوا بُغْيتكم من القضاء على دينه بل هو باقٍ إلى يوم القيامةِ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21][3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/318.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أذى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضرّ).

والظَّاهِرُ من الفَرْقِ بينهما أنَّ الضَّررَ أعمُّ من الأذى، وأنَّ الأذى يقع غالبًا بالقولِ، وعلى اليسيرِ مِنَ الأشياءِ، أمَّا الضَّررُ؛ فيكونُ بالفعلِ والقولِ والكبيرِ والصَّغيرِ، واليسيرِ والكثيرِ، فاصطفى النَّظمُ القرآنيُّ ما هو ألصقُ بسياقِ التَّهديدِ وعمومِ النَّفي الَّذي يقوِّيهِ ما بعدَهُ مِن تنكيرِ المفعولِ المطلقِ ﴿شَيْـًٔا﴾.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»